

البَابُ الثَّانِي
العصر الإسلامي

obeikandi.com

الفصل الأول

١ - علاقة مصر بالعرب قبل الإسلام^(١)

العلاقة بين مصر والعرب علاقة قديمة جداً تعود لعصر ما قبل الأسرات حيث شهدت مصر قدوم هجرات سامية كثيرة إلى أراضيها ، وهي هجرات مستمرة دون انقطاع ، اندمجت مع المصريين ، وسنحاول تتبع هذه الهجرات .
بعد اتحاد مصر عام ٣٢٠٠ ق.م أصبحت مصر دولة قوية استطاعت توجيه ضربات لهؤلاء البدو ، الذين كانوا يعيشون في شبه جزيرة سيناء ، وكان المصريون يسمونهم (عمو) ومعناها البدو .

وفي عهد الدولة القديمة ، وهو ما يُعرف باسم عصر الأسرات أو بناء الأهرام ، نظمت مصر حملات منظمة لتأديب البدو ، والذين كانوا يهددون طرق التجارة ، وقد أقامت مصر في هذه الفترة علاقات مع جنوب شبه الجزيرة العربية .
وقد كان البدو يستغلون فترة الاضطرابات السياسية في مصر ويجاولون الإغارة عليها ، مثلما حدث في عام ٢٣٠٠ ق.م في العصر المتوسط الأول ، حينما أغار هؤلاء البدو على الدلتا ، وتمكّن أمراء أهناسيا من طردهم .

وقد برز الوجود العربي أكثر في عهد الهكسوس ، والذين تعود أصولهم إلى قبائل عربية اختلطت بسكان الشام ، واستطاعوا احتلال مصر ، وتأسيس عاصمة لهم في أواميس ، وقد تأثرت الحضارة المصرية بهؤلاء الهكسوس ، حيث أدخلوا سلاح العجلات الحربية ، وبعض الصناعات إلى مصر .

(١) عن علاقة العرب قبل الإسلام بمصر انظر عبد الله خورشيد: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وعبد النعيم ضيفى عثمان مقدمة البيان والإعراب عما حل بمصر من الأعراب ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة . وانظر : فيليب حتى : تاريخ العرب قبل الإسلام .

أما في عهد الدولة الحديثة، فقد زادت العلاقات بين مصر وشبه الجزيرة العربية، وقد ساعد على نمو هذه العلاقات اتساع مساحة الامبراطورية المصرية، والتي وصلت في حدودها إلى بلاد العراق، وكان من مظاهر التعاون اتساع التجارة المصرية، كما عمل البدو أحياناً كثيرة كجنود مرتزقة في الجيش المصري، كما قدمت قبائل عربية استوطنت في وادي المظميات.

وفي العصر المتأخر، تعرضت مصر لاضطرابات كثيرة، كان من أبرزها قيام مصر بتحريض القبائل البدوية ضد دولة آشور في العراق مما جعل الآشوريين يقومون بغزو مصر.

وقد كان العرب قبل الإسلام يقدمون العون لكل من أراد غزو البلاد، فقد ساعدوا حملة قمبيز الفارسية في غزوها لمصر، وكانوا يمدون الجيش الفارسي بالجمال والقرب الممتلئة بالمياه. ولم يكتفِ العرب بذلك، بل كوّنوا فرقة للقتال بجانب الجيش الفارسي. وقد عاونوا أيضاً الرومان عندما فتحوا الإسكندرية، عن طريق تشكيل فرقة من الفرسان العرب، حاربت بجوار الرومان.

وقد كان العرب يعيشون في الصحراء الشرقية، ومدينة الإسكندرية، حيث كان يعيش العرب بجوار اليهود، والقبط، والسوريين، والإغريق، كما أن بلاد الحجاز شهدت إقامة الكثير من المصريين، الذين أسهموا في إعادة بناء الكعبة، بعد تصدع جدرانها نتيجة سيل، وكان المصري (باخوم) من الذين شاركوا في البناء.

وكانت هناك وسائل عديدة، ساعدت على تقوية العلاقات بين مصر والعرب منها: قرب موقع مصر الجغرافي من شبه الجزيرة العربية، ووجود شبه جزيرة سيناء، التي كانت حلقة الوصل بين القبائل العربية ومصر. فعبر سيناء قدمت القبائل، واختارتها مكاناً للعيش، وقد تركز وجودهم أكثر بعد الفتح الإسلامي لمصر، والذي سنعرض له، في الصفحات القادمة.

٢ - الفتح العربي لمصر وعصر الولاية^(١)

لم يكن فتح مصر من ضمن أهداف الفتوح الإسلامية ، والتي حدثت في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، والسبب وجود حاجز مائي بينها وبين شبه الجزيرة العربية ، وهو البحر الأحمر ، وبسبب حرص أمير المؤمنين على أرواح المسلمين ، لوجود حامية رومانية كبيرة فيها .

ولكن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) رَغِبَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بسهولة فتح مصر ، وذكر له غناها في الموارد ، وأنها سوف تكون عوناً للمسلمين في فتوحاتهم ، ولكن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تردد . وكان عمرو بن العاص (رضي الله عنه) قد أتى بتجارته مرات عديدة لمصر ، ويعرف أهلها معرفة جيدة .

ولم يأس عمرو بن العاص فكرر الإلحاح على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حتى وافق بعد إلحاح . وأذن لعمرو بفتح مصر ، وأمدّه بثلاثة آلاف جندي للقيام بفتح مصر تحقيقاً لعدة أهداف ، وهي تأمين ظهر الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام ، بالقضاء على الروم في مصر ، ونشر الإسلام بين جموع المصريين ، تحقيقاً لرسالة الإسلام ، وعالميته .

وقد سار عمرو بن العاص (رضي الله عنه) بجيشه الذي لا يزيد عن الثلاثة آلاف جندي ، فأرسل له الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رسالة يطلب منه الرجوع عن الغزو ، إن لم يكن قد دخل مصر ، فأمسك عمرو بن العاص بالرسالة ، ولم يفتحها حتى وصل للفرما وهي بأرض مصر ، فلما قرأها على الجنود ، لم يكن لهم من اختيار سوى مواصلة الفتح . فوصل الجيش الإسلامي إلى بلبيس وواجه جيوش الروم وانتصر عليهم ، ثم توجه إلى قرية أم دنين ، وانتصر على الروم أيضاً ، حتى وصل إلى حصن بابليون . وهو حصن روماني يقع على النيل .

(١) عن الفتح الإسلامي لمصر انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . وانظر : بتلر : فتح العرب لمصر . والكندی : ولاية مصر ، تحقيق حسين نصار . والسيوطي : حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .

وكان قائده يسمى الأعيرج . فضرب عمرو بن العاص الحصار على الحصن ، وطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، فأمدّه بثنتا عشر ألف جندي بقيادة الزبير بن العوام (رضى الله عنه) ، واستمر حصار الحصن لمدة سبعة شهور ، حتى استسلمت حامية الحصن .

وبعد فتح حصن بابلين سار الجيش الإسلامي إلى مدينة الإسكندرية وقاتلوا الروم ، وانتصروا عليهم سنة ٢١هـ . ثم واصل عمرو بن العاص فتوحاته في شمال إفريقيا ففتح برقة سنة ٢١هـ . وطرابلس سنة ٢٢هـ . وبذلك يكون عمرو بن العاص قد أرسى دعائم الحكم الإسلامي في مصر ، وقد تمّ تعيينه والياً على مصر عدا الصعيد فقد ولى عليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

وبعد وفاة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حاول عمرو بن العاص أن تكون له ولاية مصر كلها بما فيها الصعيد ، ولكن الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) عزل عمرو بن العاص من ولاية مصر .

ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح :

تولى بعد عزل عمرو بن العاص ، وفي عهده هاجم الروم مدينة الإسكندرية ، فطلب الناس من عمرو بن العاص أن يقود الجيش لمحاربة الروم ، واستطاع الانتصار عليهم في عام ٢٥هـ . ومن أهم أعمال عبد الله بن سعد . فتح إفريقيا وهي تونس الحالية في عام ٢٧هـ . وقتل جرجيروس حاكم إفريقيا .

وفي عهده قامت ثورة قادها محمد بن أبي حذيفة الذي ثار على عقبة بن عامر ، خليفة عبد الله بن سعد ، وأخرجه من مدينة القسوطاط .

ولاية قيس بن سعد :

هو قيس بن سعد بن عبادة ، تولى حكم مصر من قبل الإمام علي بن أبي طالب (رضى الله عنه) ، وجمع له أمر الخراج ، والصلاة . وقد استطاع القضاء على ثورة قام بها العرب في خربتا .

وقد ولى على مصر عدد كبير من الولاة، يزيد عن مائة وَاٍلِ وأكثر، ولذلك حتى لا يطول موضوع الكتاب، سنقتصر في الحديث على أهمهم.

٣- الولاة فى عصر الأمويين

ولاية عمرو بن العاص الثانية :

تولَّى عمرو بن العاص للمرة الثانية، من قبَل معاوية بن أبى سفيان فى عام ٣٨هـ. وجمع له فيها الصلاة والخراج. وفى عهد ولايته الثانية تعرض لمحاولة اغتيال ولكنه نجا منها، وكان من أسباب محاولة الاغتيال هذه هو مشاركته فى عملية التحكيم ضد على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فحاول الخوارج قتله.

وفى عهد ولايته الثانية حارب قبيلة لواتة البربرية وانتصر عليهم، ولما حاولوا الثورة مرة ثانية أمر عمرو بن العاص، عقبة بن نافع بغزو قبائل لواتة، ونجح عقبة ابن نافع فى هزيمة هذه القبائل، كما غزا عقبة بن نافع قبائل هواة.

وقد توفى عمرو بن العاص (رضى الله عنه) فى صباح عيد الفطر عام ٤٣هـ، واستخلف ابنه عبد الله على الصلاة، ومن أقواله (رضى الله عنه) : «اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك».

ولاية عقبة بن عامر :

تولَّى ولاية مصر، من قبَل معاوية بن أبى سفيان، وقد كان عقبة بن نافع فقيهاً، وقارئاً. وهو من صحابة رسول الله ﷺ، وقد عُزِلَ من ولاية مصر عام ٤٧هـ، وتولى بدلاً منه مسلمة بن مخلد الأنصارى.

ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى :

تولَّى مسلمة ولاية مصر من قبَل معاوية بن أبى سفيان، وأُعطيَتْ له ولاية المغرب أيضاً، وأهم الأحداث التى حدثت فى عهده نزول الروم البرلس سنة ٥٣هـ

فحاربهم مسلمة بن مخلد . واستشهد في هذه المعركة وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائذ بن ثعلبة البلوى ، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمي ، كما استشهد أيضاً جمع كثير من الناس .

ومن أعماله العمرانية قيامه بتوسعات في جامع عمرو بن العاص ، كما يُنسب له أنه أول من أمر ببناء المآذن ، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم في الليل في وقت واحد ، فكان مُؤذّنو المسجد الجامع يُؤذّنون للفجر ، فإذا فرغوا من أذانهم أذّن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد .

وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ، واختيار يزيد بن معاوية ، أقر مسلمة بن مخلد على مصر ، وقد قام مسلمة بأخذ البيعة ليزيد بن معاوية ، وقد توفي مسلمة بن مخلد في عام ٦٢ هـ . واستمرت ولايته على مصر خمسة عشرة سنة ، وأربعة أشهر . وقد اشتهر مسلمة بن مخلد بإطالته في الصلاة ، فقد كان يقرأ سورة البقرة في صلاة الظهر ، ففي رواية الحارث بن يزيد (كان مسلمة بن مخلد يصلّي بنا ، فيقوم في الظهر ، فربما قرأ الرجل سورة البقرة) .

ولاية عبد الرحمن بن عتبة :

ولى على مصر من قبيل عبد الله بن الزبير في عام ٦٤ هـ . وفي عهده عُيّن مروان ابن الحكم خليفة على الدولة الأموية في نفس العام ، فحدث في مصر صراع بين أنصار عبد الله بن الزبير وأنصار الأمويين ، فأرسل مروان جيشاً لمحاربة عبد الرحمن ابن عتبة . أما عبد الرحمن بن عتبة . فجهز جيشاً زوّده بمراكب بحرية وجيشاً برياً ، ليمنع عبد العزيز بن مروان من الدخول إلى مصر ، كما حفر خندقاً حول مدينة الفسطاط ، كما أرسل جيشاً بقيادة زهير بن قيس البلوى إلى أيلة .

وبدأت المعركة بين جيش عبد الرحمن بن عتبة والأمويين ، واستطاع الأمويون هزيمة جيش زهير بن قيس البلوى ، أما الجيش الآخر وكان بقيادة السائب بن هشام ابن كنانة فانسحب من المعركة . وبالنسبة للأسطول البحري فقد فاجأته عاصفة

فأغرقتة ، ولم يتبق أمام عبد الرحمن بن عتبة إلا أن يتولى المقاومة بنفسه ، فتحصَّن في خندق الفسطاط ، والذي كان قد أمر بحفره حول المدينة لحمايتها .

أما عبد العزيز بن مروان فقد سار بجيشه ، حتى وصل إلى مدينة عين شمس فخرج ابن جحدم لمقاتلته ، ولكنه لم ينجح في وقف زحفه تجاه الفسطاط ، واستمر حصار الأمويين للفسطاط ، حتى لجأ ابن مروان لاستمالة مجموعة من القبائل النازلة في مصر . وكان قد تواطأ من قبل مع ابن جحدم، ودخل مروان الفسطاط عام ٦٥هـ . وحاول استمالة المعافرى إليه ، ولكنهم أبوا أن يبايعوه ، فقتل حوالي ثمانين رجلاً منهم .

ولاية عبد العزيز بن مروان :

تولَّى مصر بعد دخوله إليها ، وهزيمته لجيش عبد الرحمن بن عتبة ، وعيَّن على الشرطة رجلاً يسمى عابس بن سعيد المرادى ، وبعد وفاة مروان بن الحكم . وتعيين عبد الملك بن مروان خليفة للدولة الأموية ، أقر عبد العزيز بن مروان بولايته على مصر .

وقد كان لعبد العزيز بن مروان إنجازات كبيرة في مصر ، مثل إنشاء الدار المذهبة ٦٧هـ ، وهى التى تسمى المدينة بسوق الحمام غرب المسجد الجامع ، كما بنى مدينة حلوان ، وغرس فيها النخيل ، وأنشأ فيها بساتين ، كما أمر بالزيادة في جامع عمرو بن العاص ، فهدمه وزاد فيه من جوانبه .

وقد حدثت أحداث هامة في عهد عبد العزيز بن مروان منها : حدوث وباء الطاعون في مصر على عهده ، وقد بدأ الطاعون ينتشر في كافة أرجاء مصر ، فخاف عبد العزيز على نفسه ، وحاول السفر للشرقية ، ولكنه نزل حلوان فأعجب بهوائها ، فقرر الإقامة فيها .

وقد مرض عبد العزيز بن مروان وتوفى في عام ٨٦هـ . فحُمل من حلوان إلى الفسطاط ، ودُفن فيها ، وقد استمرت فترة ولايته على مصر عشرين سنة ، وعشرة

أشهر ، وتعتبر أطول فترة قضاها وال في مصر ، وعلى الرغم من ثرائه ، نتيجة لتخصيص خراج مصر له ، إلا أنه مات فقيراً لا يمتلك سوى سبعة آلاف دينار .

ولاية عبد الله بن عبد الملك :

عُيِّن والياً على مصر من قِبَل أبيه في عام ٨٦ هـ ، وكان عمره حينها تولى على مصر حوالي سبعة وعشرين عاماً ، وفي عهده تم تعريب الدواوين في مصر ، وأصبحت تُكتب باللغة العربية بدلاً من القبطية ، كما أُبعد أثيناس من الديوان ، وعين بدلاً منه يربوع الفزاري ، كما منع الناس من ارتداء البرانس ، وبنى الجامع المعروف بجامع عبد الله .

وفي عهده زادت الأسعار في مصر ، فتشاءم منه المصريون ، واتهموه بأخذ الرشوة ، وسموه مكسبياً ، وكانت هذه الأزمة أول أزمة يراها المصريون ، وقد سخر الشعراء منه نتيجة هذه الأزمة ، فقال زرعة بن سعد الله :

إذا سار عبد الله من مصر خارجاً فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمكيال وَافٍ مُغربل فما سار حتى سار والمدّ فالج

ولاية قرة بن شريك :

تولّى حكم مصر عام ٩٠ هـ ، وقد قام بعدة إصلاحات إدارية ، فعين عبد الأعلى ابن خالد قائداً للشرطة ، ثم عزله وعيّن عبد الملك بن رفاعه ، أما في الإسكندرية فعين عبد الرحمن بن معاوية على الشرطة سنة ٩١ هـ .

وقد حدثت ثورة قام بها الخوارج الشراة ، ضد قرة بن شريك في الإسكندرية ، وكان زعيم هذه الثورة المهاجر بن أبي المثني ، وابن أبي أرطان ، وكان عدد الثوار حوالي مائة ، ولكن أحد الوشاة أبلغ قرة بمؤامرة الخوارج الشراة ، فألقى القبض عليهم عند مغارة الإسكندرية ، وحبسهم فيها ، كما قتل زعماء الثورة .

ومن أعمال قرة بن شريك العمرانية قيامه بالزيادة في المسجد الجامع (جامع عمرو بن العاص) وعمل منبراً جديداً له ، كما أقر الدواوين ، وبنى له اصطبلًا لخيوله ، أخذه من أرض الموات ، وغرسه قصبًا ، وكان يُعرف باسم إسطلب قرة .

وقيل عن قرّة بن شريك : إنه كان يعتقر الخمر ، وذكر الرواة أنه كان بعد أن يفرغ العمال من العمل يدخل المسجد ، ويشرب الخمر ، ويستمتع للطبل والمزمار .
ويقول : لنا الليل ، ولهم النهار . وقد تُوفّي قرّة بن شريك في عام ٩٦ هـ ، ودُفِن في مصر ، واستمرت ولايته على مصر ست سنوات .

ولاية عبد الملك بن مروان :

تولّى الحكم من قبل مروان ، وأعطيت له الصلاة والخراج ، وكان والياً على خراجها من قبل . وقد عيّن أخاه معاوية على الشرطة سنة ١٣٢ هـ ، ثم عزله وعيّن بدلاً منه عكرمة بن عبد الله ، وفي عهده أمر بإقامة المنابر في الكور (المحافظات) حيث لم تكن بها منابر .

وقد حدثت في عهده ثورة القبط ، قادها رجل يسمى (يُحَنَس) في سمنود ، فبعث عبد الملك بن مروان بجيش بقيادة عبد الرحمن بن عتبة المعافري ، ففضى على الثورة ، وقُتل (يُحَنَس) وكثير من أصحابه ، كما قام بتأديب قبائل قيس . فسير إليهم جيشاً بقيادة موسى بن المهند والى بلبيس ، ودعاهم للصلح ، فانصرفوا .

قدوم مروان بن محمد لمصر :

قدم مروان بن محمد لمصر فراراً من الهجوم العباسي على الدولة الأموية ، فدخل مصر في عام ١٣٢ هـ ، وقام بعدة أعمال وهي حرق الدار المذهبة التي بناها عبد العزيز ابن مروان ، كما حرق الجسرين على النيل في الجيزة ، ويبدو أنه قام بذلك حتى لا يعطى العباسيين فرصة لمطارده .

ولكن جيوش العباسيين طاردته ، ودخلت في معركة معه في بوصير ، وقُتل مروان بن عبد الحكم في المعركة ١٣٢ هـ ، وبذلك انتهى عصر ولاية بنى أمية في مصر ، ودخلت مصر في عصر جديد وهو ولاية الدولة العباسية .

٤ - الولاية فى عهد العباسيين

ولاية صالح بن على :

هو صالح بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، تولى فى عام ١٣٣ هـ . من قبل أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين ، وقد تولى صالح بن على ولاية مصر مرتين ، والمرة الثانية كانت فى عام ١٣٦ هـ .

وفى عهده تمت البيعة للدولة العباسية من المصريين ، كما تم أسر عبد الملك بن مروان ، ومعاوية بن مروان من البيت الأموى ، كما قام بالتنكيل بمؤيدى الأمويين فى مصر .

ولاية موسى بن عيسى العباسى :

تولى من قبل هارون الرشيد ، وعين أخاه إسماعيل على الشرطة ، وفى عهده أذن للمسيحيين ببناء الكنائس التى هدمت فى عهد على بن سليمان ، وبُنيت الكنائس بعد مشورة الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة ، وقد قالا إنها من عمارة البلاد .

ولاية عيسى بن منصور :

تولى عام ٢١٦ هـ وفى عهده قامت ثورة العرب والأقباط احتجاجاً على ظلم الموظفين ، وكان من نتيجة الثورة طرد الموظفين ، وامتنع العرب والأقباط عن دفع الضرائب ، فأحضر عيسى بن منصور ، الأفشين من برقة للقضاء على الثورة ، واستطاع القضاء عليها .

وفى عهد عيسى بن منصور . زار الخليفة المأمون مصر عام ٢١٧ هـ ، وسخط على ما قام به عيسى بن منصور ، وأجرى إصلاحات إدارية فعين أحمد بن بسطام منصب رئيس شرطة الفسطاط . كما أمر بتعمير المقياس . كما أمر بإقامة جسر بدلاً من الجسر المتهدم بالفسطاط ، كما عمل على ضبط الأمن ، وزار الكثير من بلاد مصر فزار سخا ، ثم عاد للفسطاط ، وغادر مصر بعد زيارة استمرت تسعة وأربعين يوماً .

ولاية عنبسة بن إسحاق الضبي :

تولّى من قِبَل المنتصر على الصلاة ، بينما تولّى الخراج أحمد بن خالد ، وقد كان عنبسة يعتقد مذهب الخوارج ، ويقوم إلى الصلاة سائراً على رجليه ، ويتولى النداء على الناس بالسحور في رمضان .

وقد تعرضت دمياط في عهده لغزو من الروم عام ٢٣٨هـ ، فجهز عنبسة جيشاً لمطاردة الروم الذين فروا إلى تنيس ، فلم يتبعهم عنبسة ، وقام الروم بأعمال إجرامية ضد السكان ، مما حدا بالخليفة المتوكل أن يأمر ببناء حصن دمياط .

وقد عُزل عنبسة بن إسحاق في عام ٢٤٢هـ ، ويعتبر آخر الولاة العرب الذين تولوا مصر ، لأن الولاة بعد ذلك كانوا من الأتراك ، والذين زاد نفوذهم في الدولة العباسية ، وخصوصاً في عهد الخليفة المستنصر ، وستقتصر في الحديث عن والٍ واحد من الأتراك ، وهو :

ولاية مزاحم بن خاقان :

وُلّي في عام ٢٥٣هـ من قِبَل المعتز ، وجعل على الشرطة أزجور ، وفي عهد مزاحم قام رئيس الشرطة أزجور بعدة إجراءات كانت جديدة على المصريين ، وهي : منع النساء من الذهاب للحمامات ، والمقابر ، كما منع الناس من الجهر بالبسملة في الصلوات ، ومنع الناس من استخدام الحصير في المساجد ، كما أمر أن تكون صلاة التراويح خمس تراويح ، كما منع الناس من التثويب ، وهو تكرار الأذان ، كما أمر بالأذان يوم الجمعة في مؤخر المسجد .

ويبدو أن أزجور هذا كانت لديه ميول دينية ، وكان يستخدم السلطة في تنفيذ أفكاره ، فهو لم يكتف بذلك ، بل منع الناس من صلاة الفجر في الضوء وأمرهم بإقامتها في التغميس (ظلمة آخر الليل) ، كما أمر الناس بعدم حلق شعورهم ، ومنع النساء والرجال من شقّ الثياب على الميت .

obeikandi.com

الفصل الثاني

١- الدولة الطولونية^(١)

مؤسس هذه الدولة هو أحمد بن طولون ، الذي تولى الحكم في مصر عام ٢٥٤هـ نائباً عن باكباك التركي ، فقد كانت الدولة العباسية في أواخر عهدها ضعيفة ، فازداد نفوذ الأتراك ، وكان الولاة حينها يتم تعيينهم على ولاية يرسلون نائباً عنهم إلى هذه الولاية ، ويظلون قائمين ببغداد ، ومن هؤلاء باكباك الذي أرسل أحمد بن طولون نائباً عنه إلى مصر .

١- أحمد بن طولون :

وقد بدأ أحمد بن طولون في بداية ولايته بتعيين بوزان رئيساً للشرطة ، ثم عزله وولى مكانه موسى بن طونيف ، وقد قام ابن طولون بمحاربة الثوار الذين ثاروا عليه في الصعيد ، وأرسل لهم الجيوش لقتالهم ، فأرسل جيشاً بقيادة ابن أزداد لمحاربة ابن الصوفي العلوي في إسنا ، ولكن جيش ابن أزداد هُزم . فأرسل ابن طولون جيشاً آخر بقيادة بهم بن الحسين . استطاع الانتصار على ابن الصوفي في الصعيد عند مدينة أخميم، وفرَّ ابن الصوفي إلى الواحات ، ثم عاد بعد سنتين ، وجدد الثورة ، ولكن ابن طولون استطاع القضاء عليه .

وقد اتسعت الدولة الطولونية في عهد مؤسسها أحمد بن طولون ، حيث قام الخليفة المعتمد بتعيين أحمد بن طولون على خراج مصر ، وتعيينه والياً على بلاد الشام، كما استطاع ضمَّ بلاد شمال إفريقيا إلى مصر .

(١) انظر : الاسحاق المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، هيئة قصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٨م .

وفي أثناء دولة أحمد بن طولون ، قام بعدة أعمال عمرانية منها بناء الجامع المعروف باسمه في جبل يشكر في عام ٢٦٦هـ ، كما استكثر من الجند السودانيين في مصر ، وأنشأ مدينة القطائع ، وجعلها عاصمة له .

وقد توفي أحمد بن طولون عام ٢٧٠هـ بعد مرض أصابه جعله يترك بلاد الشام ويتوجه إلى مصر . وتولى من بعده ابنه خمارويه . وقد توفي أحمد بن طولون وله من الأولاد ثلاثة وثلاثون ولدًا ، منهم سبعة ذكور ، أما ثروته التي خلفها فقد كانت عشرة ملايين دينار ، وعشرة آلاف خيل ، ومائة مركب حربي .

٢ - خمارويه (٢٧٠-٢٨٢هـ / ٨٨٤-٨٩٥م) :

تولّى الحكم عام ٢٧٠هـ / ٨٨٤م . واشتهر بحب الصدقات والخير ، ومن أهم أعماله العمرانية توسعة الميدان الذي أنشأه والده ، كما أنشأ بركة من الزئبق ، ينام فيها على وسائل هوائية ، لأنه كان يشكو من الأرق . كما أنشأ دار السباع - أشبه بحديقة الحيوان - وقد قُتل خمارويه في مدينة دمشق عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م بعد أن مكث في الحكم مدة ثنتا عشر سنة ، وخمارويه ابنة مشهورة هي : قطر الندى ، والتي كان لحفل زفافها على الخليفة العباسي المعتضد شهرة كبيرة .

٣ - حكام الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه :

بعد وفاة خمارويه ، تولى ابنه أبو العساكر بن خمارويه عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م ، ولكنه لم يمكث كثيرًا ، حيث قُتل عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م بعد فترة قضاها في الحكم لا تزيد عن ثمانية أشهر ، ثم تولى من بعده أخوه أبو موسى بن هارون بن خمارويه ، وحكم لمدة ثماني سنوات وقُتل .

وقد انتهت الدولة الطولونية بعد إرسال الدولة العباسية جيشًا بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ، الذي دخل مدينة القطائع وأحرقها ، وعادت مصر ولاية عباسية تُحكم مباشرة من قِبَل العباسيين .

٢ - الدولة الإخشيدية

(٢٢٢ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م)

ظهرت هذه الدولة في مصر بعد انتهاء الدولة الطولونية ، حيث قام الخليفة العباسي بتعيين محمد بن طغج الإخشيدى حاكمًا على مصر ، مكافأة له على التصدي للفاطميين في بلاد المغرب .

وقد استطاع محمد بن طغج أن يُوطد أركان الدولة ، وأن يعيد للبلاد الأمن ، كما اتسعت في عهده الدولة ، فوصل نفوذ مصر إلى بلاد الشام ، والحجاز . وقد توفي الإخشيد وتولى من بعده ابنه أبو القاسم أنجور .

الدولة في عهد أبي القاسم أنجور (٢٢٤-٣٤٩ هـ / ٩٤٦-٩٦٠ م) :

عندما تولى أنجور كان طفلاً صغيراً ، فعين وصياً عليه كافور الإخشيدى ، وقد نقل العاصمة إلى مدينة العسكر ، بعد أن كانت مدينة القطائع في عهد ابن طولون .

وفي عهد أبي القاسم أنجور ، وقع حريق كبير في سوق البزازين ، بلغت خسائره حوالي عشرة آلاف درهم ، واحترقت فيه حوالي ألف وسبعمئة دار .

ولاية كافور الإخشيدى :

كان يُعرف باسم (أبو المسك كافور) ، وكان عبداً من كبار قواد الدولة الإخشيدية . وقد كان كريماً يُجزل العطاء . وفي عهده زار المتنبي الشاعر مصر ، ولم يتخير اللحظة المناسبة لطلب المنح من كافور ، فلم يعطه كافور أموالاً ، فأخذ في سبِّ كافور بقصيدة يقول فيها :

أباؤه السُّودُ أمُّ أجدادهُ الصيد

مَنْ علَّمَ الأَسودَ الخِصِيَّ مَكْرَمَةً

عَنْ الجميلِ فكَيْفَ الخِصِيَّةُ السُّود

وَذَاكَ أَنَّ الفُحولَ البِيسَ عَاجزَةً

العَبْدُ لَيْسَ بِحُرٍّ صَالِحٍ وَأَخٍ
لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْخَزْمِ مَوْلُودٌ
لَا تَشْتَرِي الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ
إِنَّ الْعَبِيدَ مَنَاجِسُ مَنَاجِيدُ

ومن الطرائف التي تُروى عن كافور الإخشيدي ، أنه كان يسمع الموسيقى ،
فهزَّ أكتافه بالرقص مثل الزوج ، فرآه الناس ، وخاف أن ينقدوه فاتخذها عادة فكلما
جلس يهز كتفيه ، حتى يعتقد الناس أنها طبع ، ولم يكن يرقص .

وقد استطاع كافور الإخشيدي أن يحافظ على أملاك الدولة الإخشيدية ، وأن
يمد سلطاتها حتى حدود الدولة البيزنطية ، وقد توفي كافور عام ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ،
وتولى من بعده أبو الفوارس أحمد بن علي .

أبو الفوارس أحمد بن علي ٣٥٨هـ / ٩٦٩م :

تولَّى الحكم فترة قصيرة ، وكان عمره اثنتا عشرة سنة ، ولم تتجاوز فترة حكمه
سنة واحدة ، وقد سقطت الدولة الإخشيدية في عهده تحت سيطرة دولة الفاطميين ،
وبدأ عهد جديد وهو عهد الدولة الفاطمية .

٣ - الدولة الفاطمية في مصر^(١)

(٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م)

يُنسب الفاطميون إلى طائفة الشيعة الإسماعيلية ، وسُموا بذلك نظراً لادعائهم
النسب للسيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، وقد استطاع هؤلاء الفاطميون
تأسيس دولة لهم في المغرب على يد أبي عبيد الله المهدي في عام ٢٩٧هـ / ٩٠٩م ،
وابتني مدينة المهدية في تونس لكي تكون عاصمة له .

وكان من أسباب توجُّه الفاطميين ، وتطلعهم شرقاً لمصر ، أن مصر قريبة من
بلاد المغرب العربي ، المقر الأصلي للفاطميين ، وكذلك قرب مصر من ناحية الموقع

(١) انظر : المقرئ : اتعاط الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء . وانظر للمقرئ : المواعظ والاعتبار بذكر
الخطوط والآثار .

الجغرافي من مقر الخلافة العباسية السنية ، أعداء الفاطميين الشيعة . كما كان من الأسباب أيضاً رغبة الفاطميين في التخلص من الثورات التي كانت تقوم ضدهم في بلاد المغرب ، وأيضاً قرب مصر من بلاد الحجاز ، فقرب الحرمين الشريفين يجعل للدولة الفاطمية قيمة روحية .

لكل هذه الأسباب السابقة ، أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي جيشاً إلى مصر بقيادة جوهر الصقلي في عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م لفتح مصر ، حيث استطاع أن يسيطر عليها بكل سهولة نظراً لضعف دولة الإخشيديين ، والتي كانت قد تفككت بعد وفاة كافور الإخشيدى ، وبسبب الصراع على الحكم نتيجة صغر سنّ أبى الفوارس آخر الحكام الإخشيديين .

وقد قام الفاطميون بتأسيس عاصمة جديدة لمصر ، وهى مدينة القاهرة ، وتأسيس الجامع الأزهر عام ٣٥٩هـ / ٩٧٠م . وقد استغرق بناؤه حوالى عامين ، وتم الانتهاء منه عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م . وكان الغرض من إنشائه هو نشر مبادئ المذهب الشيعى فى مصر ، وحتى لا يصطدم المصريون مع الفاطميين بسبب اختلاف المذهب . وقد سُمى الجامع الأزهر بهذا الاسم لأنه سُمى على اسم السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ . وقيل أيضاً : لأنه سيكون زاهراً بالعلم . وأيضاً لأن نوافذه كانت زرقاء اللون .

وبعد أن انتهى جوهر الصقلي من فتح مصر ، أرسل للخليفة المعز لدين الله الفاطمي يخبره بأنه تم فتح مصر ، فحضر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، ونزل فى قصره ، وبدأ حكمه لمصر والذى استمر ثلاث سنوات ، ودُفِن فى قصره بالقاهرة ، وتولى من بعده العزيز بالله .

فترة حكم العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥-٣٨٦هـ / ٩٧٥-٩٩٦م) :

تولى الحكم بعد وفاة المعز لدين الله ، وقد بلغت مدة حكمه حوالى إحدى وعشرين عامًا ، وفى عهده تم تحويل الجامع الأزهر لجامعة علمية ، وأول مَنْ تولى التدريس فيه الوزير (يعقوب بن كلس) وكان يُدرّس من كتاب الرسالة الوزيرية .

كان الحاكم بأمر الله رجلاً غريب الأطوار ، فقد تميز بصفات متناقضة ، فقد كان شجاعاً وفي نفس الوقت جباناً ، كان يحب العلماء وفي نفس الوقت يقتلهم . من أشهر أعماله إنشاء مسجد الحاكم ، وإنشاء دارالحكمة لنشر المذهب الشيعي . وكان من أغرب أعماله منع النساء من السير في الطرقات ، ومنع الناس من أكل اللوخية ، ومنع الناس من العمل نهاراً .

كما أمر أن توقد الفوانيس بالنهار ، وتُطفأ بالليل ، وادعى النبوة ، وادعى معرفته بعلم الغيب ، وقد سخر المصريون منه عندما ادعى علم الغيب ، فألقوا إليه ورقة بها بيت شعر ، يقول :

بَا لِحُورِ وَالظُّلْمِ قَدْ رَضِينَا وَلَيْسَ بِالْكَفْرِ وَالْحَمَاقَةِ
إِنْ كُنْتَ أَوْتَيْتَ عِلْمَ الْغَيْبِ بَيِّنٌ لَنَا صَاحِبَ الْبَطَاقَةِ

وقد كان أيضًا يدعى شرف النسب ، لأن نسبهم مطعون فيه ، وكان يريد بذلك التعالي على الخلفاء العباسيين ، وقد سخر منه بعض الشعراء بقصيدة يقول مطلعها :

إِنَّا سَمِعْنَا نَبَأً مَنكَرًا يُتْلَى عَلَى السَّامِعِ فِي الْجَامِعِ
إِنْ كُنْتَ فِيمَا قَلْتَهُ صَادِقًا فَصِفْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّالِعِ
أَوْ كَانَ حَقًّا كُلِّ مَا تَدْعِي فاعِدْ لَنَا بَعْدَ الْأَبِ السَّابِعِ
أَوْ فَدَعِ الْأَشْيَاءَ مَسْتُورَةً وَاذْخُلْ بِنَا فِي النَّسَبِ السَّابِعِ

وكان الحاكم بأمر الله الفاطمي يطلب من الناس تعظيمه ، فكان يأمرهم بالوقوف عند سماع اسمه في المساجد ، كما ألزم المسيحيين بتعليق صلبان ضخمة في رقابهم ، وفي عهده ظهر رجل أَلْفَ كتاباً ادعى فيه أن الحاكم نبي ، ووضع له مناظرات وهذا الرجل يُسمى أبو حمزة ، فلما طلبه الناس ليقتلوه فرّ إلى بلاد الشام ، وأسس المذهب الدرزي .

وقد قُتِلَ الحاكم بأمر الله الفاطمي ، على يد أخته ست الملك ، حيث قامت بتدبير اغتياله عند ذهابه للمرصد الحاكمي ، وكان الحاكم بأمر الله مشغولاً بحب الفلك ، فانفتحت مع مجموعة من العبيد على قتله عند صعوده جبل المقطم ، فقتلوه عام ٤١١هـ / ١٠٢٠م . وتولى بعده ابنه الظاهر بن الحاكم بأمر الله ، ومكث في الحكم حوالي خمسة عشر سنة ، وثمانية شهور .

ثم تولى من بعده ، المستنصر بالله معد بن الظاهر ، وحكم لمدة ستين عامًا وحدثت في عهده الشدة المستنصرية ، وهي عبارة عن موجة غلاء ، حدثت نتيجة نقصان النيل ، لدرجة أن رغيف الخبز وصل ثمنه لخمسين دينارًا ، وأكل الناس جثث الكلاب ، وجثث الموتى ، ولم ينقذ مصر من هذه الأزمة سوى شحنات القمح الآتية من بلاد الشام ، وقدم بها بدر الدين الجمالي ، الذي تولى الوزارة وبنى باب زويلة المشهور حتى الآن .

ثم تولى من بعده ابنه المستعلي بالله ، أبو القاسم . وتولى الوزارة له بدر الدين الجمالي . وفي عهده بنى الجامع الجيوشي بالمقطم ، وجامع الجيزة . وفي عهد المستعلي بالله بدأت الحملات الصليبية ، ودخل الصليبيون بيت المقدس عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م . وقد بلغت مدة حكمه سبع سنوات . وتوفي عام ٤٩٥هـ / ١١٠١م .

وتولى من بعده الأمر بأحكام الله ، وفي عهده بنى جامع الأقمر ، وقُتِلَ الأمر بأحكام الله بالجيزة عام ٥٢٤هـ / ١١٢٩م . وتولى من بعده الحافظ لدين الله . وحكم لمدة تسعة عشر عامًا . وتوفي عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م . ثم تولى الظافر بأعداء الله . وفي عهده بُنى جامع الفكهاني . كما تولى من بعده الفائز عيسى بن الظافر وكان وزيره الصالح طلائع بن رزيك ، ثم تولى من بعده آخر خلفاء الدولة الفاطمية الخليفة العاضد ، وهو آخر الخلفاء الفاطميين في مصر . توفي عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م .

٤- الدولة الأيوبية^(١)

(٥٦٧- ٦٤٨هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠م)

في أواخر عهد الدولة الفاطمية ، شهدت صراعاً بين الوزراء ، والذين زاد نفوذهم نتيجة لضعف الخلفاء ، وكان من أشهر الوزراء الذين قام بينهم الصراع شاور وضرغام . وقد استنجد شاور بالصلبيين لمساعدته في صراعه ضد ضرغام ، بينما استنجد ضرغام بنور الدين محمود ، والذي كان يحكم إمارة الموصل وورث أملاك أبيه عماد الدين زنكى .

وكانت الرغبة في فتح مصر ، تراود نور الدين محمود لعدة أسباب ، وهى قوة مصر العديدة والاقتصادية وحاجته لهذه القوة ، لمؤازرته في حربه ضد الصليبيين ، ومنها محاولة توحيد العالم الإسلامى للوقوف ضد الصليبيين ، وأيضاً مساندة الوزير ضرغام .

لكل هذه الأسباب أرسل نجم الدين محمود جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه لفتح مصر ، واصطحب معه أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . وبعد وفاة أسد الدين شيركوه تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة للخليفة العاضد عام ٥٦٤هـ/ ١٢٦٥م . وقد بدأ عهده بالوزارة بتقوية نفوذه . فأبطل المذهب الشيعى بمصر ، وأوقف صلاة الجمعة بالجامع الأزهر نتيجة فتوى القاضى صدر الدين بن درباس .

وبعد وفاة الخليفة العاضد ، أعلن صلاح الدين الأيوبي قيام الدولة الأيوبية وفي عهده اتسع نفوذ الدولة واستطاع ضم الشام ، واليمن ، وبرقة لحكم مصر ، كما سيطر على بلاد النوبة .

ومن أهم أعماله العمرانية في مصر بناء قلعة الجبل ، وإنشاء سلسلة من المدارس مثل المدرسة القمحية ، وكان الغرض من إنشاء المدارس هو محاربة الأزهر الشريف ،

(١) انظر أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

ومحاولة إيجاد بدائل عنه ، ورغم ذلك ظل الأزهر الشريف يحتل مكانة علمية في قلوب المصريين ، وشهد إقبالاً شديداً من الطلاب على الدراسة فيه ، كما بُني في عهده قلعة الجبل .

أما عن أهم أعمال صلاح الدين الحربية ، وهى مهنته الرئيسية فهى انتصاره على الصليبيين فى موقعة حطين ، وفتح بيت المقدس والذى كان قد سقط فى يد الصليبيين فى عهد الدولة الفاطمية ، فقد تمكّن من فتحها فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م . وقد توفى صلاح الدين الأيوبي فى عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م .

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي تولى من بعده ابنه العزيز عماد الدين ، وبلغت مدة حكمه حوالى خمس سنوات ، وتوفى عام ٥٩٥هـ / ١١٩٨م . وتولى من بعده الملك الأفضل نور الدين . وقد ثار ضده عمه العادل أبو بكر الذى تولى الحكم ، وفى عهده نقل الوزارة إلى قلعة الجبل ، وفى عهده اشتدت موجة الغلاء فى مصر ، كما تعرضت مصر لغزو من الصليبيين .

وقد تولى من بعده ابنه الملك الكامل ، وبدأ بمحاربة الصليبيين الذين نزلوا دمياط عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م . وقد أقام جسراً على النيل شمال دمياط . واستغل فترة الفيضان وأغرق الصليبيين ، وطلبوا الخروج من مصر فتم جلاؤهم من مدينة دمياط ٦١٨هـ / ١٢٢١م .

وبعد وفاة الملك الكامل ، تولى بدلاً منه ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م . وأهم أعماله الحربية هى استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين ، والانتصار على الحملة الصليبية السابعة ، والتى قادها ملك فرنسا لويس التاسع ، وقد استطاع جيش الأيوبيين أن يوقع الهزيمة بلويس التاسع ، والذى تم أسره فى دار ابن لقمان ، ولم يُفرج عنه إلا بعد دفع فدية مقدارها ثمانمائة ألف دينار .

ومن أهم أعمال الصالح نجم الدين أيوب : بناء قلعة الروضة ، وإقامته فيها ، ويُعتبر أول من استكثر من شراء المماليك ، وأسكنهم فى قلعة الروضة ، ولذلك سُموا بالمماليك البحرية ، كما بنى قنطرة بالسد ، وبنى مدرسة بين القصرين .

وتولّى من بعده ابنه توران شاه ، ولم يمكث في الحكم سوى شهرين حيث تعرّض لمؤامرة من المماليك ، والذين حرّضتهم شجرة الدر على قتله ، لأنه طالب بأموال أبيه ، فقتل بعد أن قفز في النيل ، وأخرجوه ، وضربوه بالسيوف حتى توفى .

ثم تولّت شجرة الدر . وعيّن الأمير عز الدين أيبك التركمانى أميراً على الجيش وقد تزوجته فيما بعد ، ثم تنازلت له عن الحكم وبدأت دولة المماليك البحرية ، وقد مكثت شجرة الدر في الحكم لمدة ثلاثة شهور . ويُعتبر عهدها آخر عهد للدولة الأيوبية ، والتي استمرت في حكم مصر اثنين وثلاثين عامًا .

وقد كانت الدولة الأيوبية في مصر من أفضل الدول التي قامت ، فقد أحبها المصريون ، نظرًا لصلاح حكامها ، وجهادهم ضد الصليبيين ، وحبهم وتشجيعهم للعلماء . وفي ذلك يقول الشاعر :

كَانُوا لِيُونَا لَا يَرَامُ حَمَاهُمُو فِي كُلِّ مَلْحَمَةٍ وَكُلِّ هَيْجِاجِ
فَانظُرْ إِلَى آثَارِهِمْ تَلْقَى لَهُمْ عِلْمًا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَفَجَاجِ
فَعَلِيهِمْ مَا عَشْتِ لَا أَدَعِ الْبُكََا مَعَ كُلِّ ذِي نَظَرٍ وَطَرْفِ نَبَاحِ

٥- الدولة المملوكية في مصر^(١) (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

المماليك طائفة من الأرقاء البيض ، أول من استكثر منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والذي أسكنهم في قلعة الروضة بالمنيل ، ولذلك سُموا بدولة المماليك البحرية . وينقسم العصر المملوكي في مصر إلى عصرين ، هما : دولة المماليك البحرية وحكمت في المدة بين (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) إلى عام (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) . ودولة المماليك الجراكسة (البُرجية) وحكمت منذ عام (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) حتى عام

(١) انظر المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك . وانظر إبراهيم طرخان : دولة المماليك الجراكسة . وانظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة .

(٩٣٩هـ/١٥١٧م). وبلغت مدة حكم دولة الجراكسة حوالي مائة وأحد وعشرين عامًا.

أولاً: دولة المماليك البحريةية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م):

حكمت هذه الدولة مصر حوالي مائة وثلاثين سنة ، وسبعة أشهر ، وأول مَنْ تولى الحكم فيها عز الدين أيبك التركمانى ، وقد قتل بتدبير من زوجته شجرة الدر ، بسبب غيرتها من قيامه بالزواج عليها . وقد بلغت مدة حكمه حوالي ستين ، وإحدى عشر شهرًا . وكان قد تولى الحكم فى عام (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) ، وتولى من بعده ابنه المنصور لمدة عام واحد .

ثم تولى الحكم السلطان سيف الدين قطز ، والذي استطاع الانتصار على المغول فى موقعة عين جالوت عام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) . وقد أنقذ مصر والعالم من الخطر المغولى ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، وبذلك يكون قد أنهى أسطورة المغول . وقد قُتل قطز على يد الأمراء المماليك عام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) ، وتولى من بعده الظاهر بيبرس .

السلطان بيبرس هو الظاهر بيبرس البندقدارى العلائى ، تولى السلطنة عام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) . وله أعمال عظيمة سواء فى الناحية العسكرية ، أو الناحية العمرانية ، أو الناحية السياسية ، فمن أهم أعماله العسكرية القضاء على الخطر المغولى عندما تم تحالف بين مغول فارس ، ومغول القبيلة الذهبية ، ولكن بيبرس أفضل هذا المشروع بقيامه بالزواج من ابنة رئيس قبيلة المغول الذهبية (بركة خان) .

وبعد وفاة هولوكو حاول ابنه (أبغا) التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين ، ولكن بيبرس استطاع هزيمة جيش المغول عام ١٢٧٧م . ومن أعمال بيبرس الحربية قضاؤه على بقايا الوجود الصليبي فى بلاد الشام فاستولى فى عام ٦٤٦هـ - ١٢٦٥م على قيسارية ، وحيفا ، وأرسوف . كما استولى على أنطاكية أقوى الإمارات الصليبية فى عام (٦٦٧هـ / ١٢٦٨م) وهاجم جزيرة قبرص ، وهى محطة تموين للصليبيين .

أما عن أعماله السياسية ، فقد أعاد الخلافة العباسية إلى القاهرة ، حيث أحضر الخليفة العباسي للقاهرة ، وكان اسمه المستنصر ، وأثبت نسبه عند قضاة الشرع ، وأعطى له سلطة تعيين السلاطين ، وآخر خليفة عباسي في القاهرة هو المتوكل . والذي توفي عام ٩٥٠ هـ . وقد سُمى حى الخليفة بمدينة القاهرة بهذا الاسم ، لأنه كان مقرًا للخليفة العباسي .

ومن أعمال بيبرس السياسية إعادته الخطبة للجامع الأزهر بعد أن توقفت فيه لمدة مائة عام ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة ، كما استحدث بيبرس منصبًا جديدًا ، وهو منصب ناظر الأزهر ، لمراعاة شئون الجامع .

ومن أعماله العمرانية بناء جامع المشهور ، باسم جامع الظاهر ، وبنائه خانقاه . وقناطر أبو منجى في القليوبية ، كما عمر العديد من المدارس ، وخصَّص لها أوقافًا للإتفاق عليها .

وقد تُوفّي السلطان بيبرس عام (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) في مدينة دمشق ، وقد تولى من بعده ابنه بركة ، ومكث في الحكم مدة سنتين وثلاثة أشهر ، وبعده تولى سلامش لمدة مائة يوم ، ثم عُزل .

وبعد عائلة بيبرس تولت دولة المماليك البحرية (عائلة قلاوون) ، وأولهم هو الملك المنصور أبو المعالي قلاوون ، ومن أهم أعماله العمرانية بناء مارستان قلاوون ، وقبة قلاوون .

أما أعماله الحربية فهي : مواصلة الغزو ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام ، فتمكن من حصار طرابلس عام (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) ، واستولى عليها ، ولم يبقَ في أيدي الصليبيين سوى عكا ، وصيدا ، وصور ، وحيفا ، وقد توفي قلاوون عام (٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م) بعد أن استمرت فترة حكمه حوالى إحدى عشر سنة .

وقد تولى بعده خليل بن قلاوون ، وقد استطاع في أولى سنوات حكمه عام (٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م) أن يحاصر عكا ويستولى عليها ، وبذلك تكون قد سقطت عكا

وهي آخر قلاع الصليبيين في بلاد الشام . كما استولى على صيدا ، وصور وحيفا . وبذلك انتهى الوجود الصليبي من بلاد المسلمين ، بعد استمراره لمدة قرنين من الزمان ، وقد توفي الأشرف خليل بن قلاوون في عام (٦٩٣هـ / ١٢٩٣م) . بعد قتله على يد الأمير بیدار .

ثم تولى من بعده الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان صغيراً وتولى الوصاية عليه الأمير زين الدين كتبغا ، ثم خلعه وتولى الحكم ، وفي عهده انتشر الغلاء في مصر وانتشرت الأوبئة قبل كتبغا ، وعاد الناصر بن قلاوون للحكم مرة ثانية .

ونظراً لطول فترة حكم دولة المماليك البحرية ، وأيضاً الصراعات والمؤامرات التي كانت في هذه الدولة ، نجد أن عدد السلاطين الذين تولوا الحكم قد ازداد ، ولذلك سنقتصر في الحديث عن أهم السلاطين الذين تركوا أعمالاً عمرانية هامة ، أو الذين حدثت في عهدهم حوادث مميزة . ومنهم :

الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد تولى الحكم للمرة الثالثة ، وأهم أعماله العمرانية بناء جامع الناصر بمصر القديمة ، وعمارة جامع القلعة ، وبناء خانقاه بسرياقوس ، وحفر الخليج الناصري المتصل بسرياقوس ، كما أصلح قناطر الجيزة .

ومن أشهر ملوك دولة المماليك البحرية السلطان حسن ، ومن أشهر أعماله العمرانية بناء مدرسته في حى القلعة بميدان الرميلى ، وهي المعروفة الآن بجامع السلطان حسن . وقد بلغت مدة بناء هذه المدرسة حوالى ثلاث سنوات ، وكان يخصص لها يومياً مصاريف تبلغ ألف مثقال ذهب . وفي عهد السلطان حسن ، تم بناء جامع شيخون وخانقاه الأمير صرغتمش ، وقد بلغت مدة حكم السلطان حسن ست سنوات وسبعة أشهر ، وكان قد تولى الحكم للمرة الثانية في عام (٧٥٥هـ / ١٣٥٤م) .

ومن أشهر الحكام أيضاً ، والذين تولوا الحكم . الملك الأشرف بن شعبان ، وقد بلغت مدة حكمه أربع عشرة سنة ، وفي عهده استحدثت العمارة الخضراء لكى

يلبسها الأشراف عام (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) ، وفي عهده خرج تيمورلنك بشورة ضد السكان .

ثم تولى من بعد الأشراف بن شعبان ابنه المنصور على ، ومن بعده الملك المنصور حاجى بن الأشراف ، والذي عزله برقوق ، مُنهيًا بذلك حكم دولة المماليك البحرية في عام (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) .

ثانياً: دولة المماليك البرجية (الجراكسة) عام (٧٨٤-٩٠٩هـ) :

هم طائفة من الأرقاء من بلاد القوقاز ، وروسيا ، والذي استكثر منهم في مصر هو السلطان قلاوون ، حيث بلغ عددهم في عهده ، حوالى ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك وأسكنهم في أبراج القلعة ، ولذلك عُرفوا باسم البرجية . وقد حكم هذه الدولة العديد من الملوك والسلاطين ، من أشهرهم :

السلطان برقوق :

اسمه عثمان بن أنص . تولى الحكم (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) ، وفي عهده زاد عنصر الجراكسة في مصر ، ومن أشهر إنجازاته العمرانية بناء مقبرته بالصحراء ، وهى الموجودة الآن بصحراء المماليك ، ومدرسته التى يقول الشاعر فيها :

قَدْ أَنْشَأَ الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ مَدْرَسَةً فَاقْتَتَّ عَلَى إِرْمِ سُرْعَةِ الْعَمَلِ
يَكْفَى الخَلِيلُ بَأَنْ جَاءَتْ لِحْدَمَتِهِ صُمَّ الجِبَالُ بِهَا تَمْشَى عَلَى عَجَلِ

وقد تُوفِّيَ عام (٨٠١هـ / ١٣٩٨م) وبلغت مدة حكمه ست عشرة سنة ، وبعد وفاته بلغت ثروته حوالى ٢ مليون دينار ، وبلغت قيمة الأقمشة والملابس والأثاث مليون دينار ، عدا الخيول التى بلغ عددها حوالى ستة آلاف ، والجمال خمسة آلاف .

وقد تولى من بعده ابنه فرج بن برقوق ، والذي مات مقتولاً بدمشق ، وتُركت جثته مُلقاةً على تل من القمامة فترة ، حتى كَفَّنَهُ أحدُ الناس ودفنه ، ومن بعده تولى الملك العادل أبو الفضل العباسى لمدة ستة شهور .

ومن أشهر ملوك دولة الجراكسة في مصر المؤيد شيخ الحمودى ، وفي عهده حُجِس الخليفة في القلعة ، ومن أشهر أعماله العمرانية بناء مدرسته ، والتي أخذ بابها من مدرسة السلطان حسن ، وتولَّى من بعده المظفر أبو السعادات بن المؤيد

ومن أشهر الملوك أيضًا الملك الأشرف برسباى ، والذي تولى عام ٨٢٥هـ ، ومن أهم أعماله فتح جزيرة قبرص في عام (٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) . وفرض عليهم الجزية ، كما قام بإنشاء مدرسة ، وبني مقبرة خارج باب النصر ، وتوفي السلطان برسباى في عام (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) بعد أن مكث ستة عشر عامًا ، وثمانية أشهر ، وخمسة أيام .

ومن السلاطين الذين أسهموا في ازدهار دولة المماليك الجراكسة السلطان قايتباى الحمودى ، تولَّى الحكم في (٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) ، وهو من أفضل سلاطين هذه الدولة ، ومن أشهر أعماله العمرانية عمارة المسجد النبوى الشريف ، وعمارة المسجد الحرام ، وخصَّص أوقافًا ، وهى عبارة عن قرى مصرية تحمل الغلال إلى جيران رسول الله ﷺ ، كما بنى مقبرته بالصحراء ، وقد كان هذا الملك محبوبًا من الشعب المصرى .

ومن أشهر السلاطين قنصوة الغورى ، وهو آخر سلاطين دولة المماليك البُرْجِيَّة في مصر . وقد تولى حكم مصر في عام (٩٠٧هـ / ١٥٠٧م) ، وقد كان شديد الدهاء ، وله العديد من المنشآت العمرانية منها مدرسته ، ومدفنه . كما بنى المنارة ذات الرأس المزدوجة بالجامع الأزهر ، وعمارة جامع المقياس بالروضة ، وعمارة سبيل المؤمنين بالقرافة ، كما قام بإنشاء سواقى مصر القديمة ، ومجارٍ لنقل المياه ، وبناء قبة برفوق بالقرب من المطرية .

وفي عهد قنصوة الغورى ، تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، على يد البرتغاليين ، مما أدى لتحول طرق التجارة عن مصر إلى رأس الرجاء الصالح . فنتج عنه تدهور الحياة الاقتصادية في مصر . وقد حاول قنصوة الغورى محاربة البرتغاليين ،

فاشترك مع أهالي البندقية بتجهيز أسطول لمحاربة البرتغاليين ، ولكنه هُزم في موقعة ديو البحرية .

وقد دخل الغورى في صراع مع العثمانيين ، والذين بدأوا في التوجه شرقاً تجاه العالم الإسلامى بسبب رغبتهم في السيطرة على العالم الإسلامى ، تحقيقاً للزعامة الروحية التى كانوا يميلون إليها . وأيضاً رغبتهم في حصار الدولة الصفوية في إيران ، التى كانت تمثل عدواً رئيسياً للدولة العثمانية ، وكان السبب هو الاختلاف المذهبى ، فدولة الصفويين كانت شيعية المذهب ، والدولة العثمانية كانت سنية المذهب ، كما أن الدولة العثمانية اتهمت السلطان قنصوة الغورى بإيواء الأمراء العثمانيين الفارين إلى مصر .

ولذلك أرسل السلطان العثمانى جيشاً تحت قيادته لمحاربة قنصوة الغورى ، والتقى الجيشان في معركة مرج دابق في عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) . وقُتل السلطان الغورى تحت أرجل الخيل ، بعد إصابته بالشلل . ثم واصل العثمانيون زحفهم إلى مصر ، وتقابلوا مع طومان باى في موقعة الريدانية عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) . وكانت الهزيمة من نصيب جيش المماليك ، ثم أُعِدِم طومان باى شنقاً على باب زويلة ، وبذلك انتهى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ودخلت مصر تحت حكم الدولة العثمانية .

ومن الأسباب التى أدت هزيمة المماليك في معاركهم ضد الدولة العثمانية هى : استخدام العثمانيين لسلاح البنادق ، والتى لم تكنُ معروفة للمماليك . والسبب الثانى هو اعتماد العثمانيين على سلاح الغدر والخيانة باتفاقهم مع خاير بك ، أحد الأمراء المماليك على توليته حكم مصر ، نيابة عن العثمانيين لو تحلى عن مناصرة قنصوة الغورى .

ولذلك أطلق الشعب على خايربك ، اسم خائن بك . ومن ألوان الخيانة أيضاً التى اعتمد عليها العثمانيون الاتفاق مع قبائل الأعراب ، والتى كانت تعيش في مصر على تسليم طومان باى للعثمانيين ، وتم شنقه على باب زويلة .

٦ - العصر العثماني في مصر^(١) (١٥١٧م - ١٧٩٨م)

يُعتبر العصر العثماني في مصر ، والذي امتدَّ منذ عام ١٥١٧م إلى عام ١٩١٤م من أسوأ العصور التي مرَّت بها مصر ، حيث شهدت البلاد في عهدهم ركودًا ، طال جميع القطاعات ، وأصبحت مصر في عزلة عن العالم وما يجري فيه . ويكفي أن مصر في عهد العثمانيين فقدت استقلالها وأصبحت مجرد إيالة عثمانية ، تدفع الجزية لهم دون أيّ مقابل يعود على مصر .

ويكفي تأخر عصر النهضة في مصر بسببهم فترة كبيرة ، كما أدى وجودهم في مصر لسيادة أنماط سيئة ، سواء في طريقة الحكم أو العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية . وسنعرض أهم ملامح العصر العثماني في مصر :

أولاً : الأحوال السياسية :

استخدم العثمانيون في حكم مصر نظامًا مهلهلاً ، يحمل في طياته عوامل انحداره وتخلفه ، وكانت فلسفته مبنية ، وتقوم على اعتبار مصر مجرد ضيعة يمتلكها السلطان وتُدركه دخلاً ، وبإلته اهتم بتحسين أحوالها ، بل استنزف قدرات مصر ، سواء الاقتصادية أو البشرية . وكان من أبرز ملامح هذا النظام هو توزيع السلطة في مصر بين ثلاثة عناصر ، ضامناً لعدم انفراد إحداها بالسلطة ، مما أدى للصراع بينها . وهذه العناصر الثلاث هي :

(أ) الوالي :

كان يُعتبر ممثلاً للسلطان العثماني في مصر ، وانحصرت مسؤوليته في جمع الجزية والضرائب وإرسالها إلى الأستانة مقر الحكومة العثمانية . وكان معيار اختيار الولاية الوحيد هو مدى قدرتهم على تقديم الرشاوى للصدر الأعظم رئيس الوزراء العثماني

(١) انظر : إسحاق المنوفي : مرجع سبق ذكره . وعبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ومظاهر التقديس في ذهاب دولة الفرنسيين .

ومدى ولائهم للسلطان ، بغض النظر عن كفاءتهم الإدارية أو غيرها ، فهي ليست في حساب العثمانيين .

وكانت مدة الولى قصيرة للغاية لا تتجاوز في أى حال من الأحوال مدة الثلاث سنوات ، والسبب في ذلك حتى لا ينفرد بشئون الولاية ، وحتى تكون هناك فرصة أخرى لتعيين ولاة ، مما يتيح مزيداً من الرشاوى للصدر الأعظم . وقد دخل الولاية في صراع مع الزمن أثناء مدة ولايتهم للحصول على أكبر قدر من الأموال تعويضاً لما دفعوه رشاوى ، ولتكوين ثروة ، تاركين أمر الولاية ، تصارعها الأنواء ، ويتنازعها المغامرون .

(ب) الديوان :

كان الديوان يتكون من كبار قواد الجيش العثماني في مصر ، وكانوا خمس فرق أساسية وهم : الانكشارية ، الألبان ، الباش بوزق ، الجراكسة ، الدلاة . وكان للديوان وظيفته ، وهي عبارة عن معاونة الولى في إدارة شئون الولاية ، هذا في ظاهر الأمر . أما في باطنه فهو مراقبة الولى ، وقد كان له أيضاً سلطة الاعتراض على قرارات الولى .

(ج) المماليك :

هم بقايا العناصر الجركسية ، وقد أمنتهم السلطان سليم الأول على أموالهم ، وأرواحهم واستعان بهم نتيجة لخبرتهم في حكم مصر ، وفي إدارة شئون الحكم المحلي ، فتولوا مناصب الكشوفية وهي تحصيل الضرائب ، ومناصب الصنجفية وهم حكام المماليك ، كما تولوا منصب مشيخة البلد (حاكم مدينة القاهرة) .

وقد استغلوا ضعف الحكم العثماني في مصر ، وقاموا بمحاولة الاستقلال عن الحكم العثماني ، عندما قام أحد زعمائهم وهو على بك الكبير والذي كان شيخاً للبلد بتكوين جيش كبير استطاع طرد القوات العثمانية من مصر . وضم إليه بلاد الشام ، وتحالف مع الشيخ ضاهر العمر بفلسطين ، وأطلق على نفسه (خاقان البحرين) .

كما استطاع تحقيق عدة انتصارات على جيش الدولة العثمانية ، ولكن العثمانيين كعادتهم اضطروا لاستخدام سلاح الحيلة للتخلص من على بك الكبير ، وذلك عن طريق الاتفاق مع أحد قواده وهو محمد بك أبو الذهب ، والذي قام باغتيال على بك الكبير .

وبذلك تخلصت الدولة العثمانية من حركته ، ويعتبر المؤرخون أن حركة على بك الكبير هي البروفة الأولى لمحمد على ، والذي استطاع فيما بعد الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية .

ثانياً : الحياة الاقتصادية:

كان الاقتصاد المصرى متدهورًا منذ أواخر عصر دولة المماليك ، ولكن زاد تدهورًا فى العهد العثمانى ، نتيجة لقصر مدة الولاية ، وإهمال شئون الولاية ، ومن أهم ملامح النظام الاقتصادى فى العصر العثمانى هى :

(أ) الزراعة :

شهدت الزراعة تدهورًا بسبب إهمال العثمانيين لشأنها ، ومن مظاهر التدهور اعتبار الأرض كلها ملكًا للسلطان ، والمزارعون يزرعونها طبقًا لحق الانتفاع ، وأيضًا قيام العثمانيين بتطبيق نظام الالتزام ، وهو نظام كان يعتمد على قيام شخص بسداد الضرائب مقدمًا للدولة ، مقابل إعطائه أرضًا يزرعها الفلاحون بالسخرة ، وكانت تسمى أرض الوسية .

وبعد أن أصبح نظام الالتزام مصدرًا من مصادر الثراء ، أصبح شديد الإقبال عليه ، ولذلك كانت تعقد حلقات مزادات لتوزيع الالتزامات لمن يتعهد بالدفع أكثر . وكان الالتزام غالبًا من نصيب المماليك ، ومشايخ العربان . وقد أعطى الملتزمون لأنفسهم حقوقًا إدارية وقضائية فى نطاق مناطق التزامهم ، وأصبحوا دولة داخل دولة .

ومن مظاهر التدهور الذى أصاب القطاع الزراعى فى عهد العثمانيين إهمال حفر الترع ، والاعتماد على المحاصيل الغذائية فقط ، وإهمال المحاصيل النقدية ، وقد ترتب على هذا النظام هجرة كثير من الفلاحين أراضيهم هرباً من مطالبات الملتزمين ، كما تراخى الفلاحون فى عملية الزراعة .

(ب) الصناعة :

لم تكن الصناعة أحسن حالاً من الزراعة ، والتي ترتبط بها ارتباطاً شديداً ، فقد تدهورت الصناعة نتيجة تدهور الزراعة ، كما سادت الحرف البدوية البسيطة ، وقام رؤساء طوائف الحرف بالعمل كجامعى ضرائب للدولة من أبناء حرفهم دون أن يقوموا بتطويرها .

(ج) التجارة :

تدهورت التجارة بسبب انعدام الأمن ، حيث كانت تقوم القوات العثمانية بنهب القوافل ، بالإضافة لقيام العربان بمهاجمة القوافل أيضاً ، وكأنها تحالف العثمانيون مع الأعراب على دمار الاقتصاد . وكان من مظاهر تدهور التجارة تدهور قيمة العملة العثمانية ، واعتماد الناس على ريال مارى تريزا باعتباره عملة محترمة . كما اختلفت المكاييل والموازين من جهة لأخرى ، وأيضاً من مظاهر تدهور التجارة عدم انتظام الأسواق ، والتي كانت تتعرض للنهب المنظم من العناصر العثمانية .

ثالثاً : الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع المصرى فى عهد العثمانيين ، يعانى من عدم العدالة الاجتماعية والتي كانت نتيجة تقسيم المجتمع إلى طبقتين متفاوتتين من حيث الحظوظ ، والأرزاق ، فقد انقسم المجتمع المصرى إلى :

(أ) طبقة الحكام :

تتكون هذه الطبقة من الأتراك ، والمماليك ، وكانت تمتلك كل الامتيازات ، فهم الملتزمون ، وهم القواد العسكريون ، وهم أمراء الأقاليم ، وكانوا يمتلكون معظم

الأراضي الزراعية ، ويمتلكون القصور الفاخرة ، وكانوا مُعْفَوْنَ من الضرائب ، وغيرها .

(ب) طبقة عامة الشعب :

وهي تتكون من العمال والفلاحين ، وليست لهم أية امتيازات ، فكانوا يدفعون الضرائب والتي تفنن الأتراك والماليك في فرضها ، فهناك ضريبة الميرى ، والبرانى ، والجوانى ، إلى آخر هذه الحيل الشيطانية لجباية الأموال ، كما كانت هذه الطبقة تعيش فيما يشبه الأكواخ .

وتوسط هاتين الطبقتين طبقة علماء الدين من رجال الأزهر الشريف ، والذين كانوا بمثابة مدافعين عن الطبقة الفقيرة أمام الطبقة الغنية ، ولذلك كان الشعب يحترمهم ويُجلهم ، وقد قامت هذه الطبقة بجهود كبيرة في سبيل تنوير الشعب المصرى ، وكان الأتراك والماليك يخشون سطوة هؤلاء العلماء ، وكانوا يستجيبون لهم ، مما أعلا من شأن هذه الطبقة في نظر المصريين .

٢- الأحوال الصحية :

نتيجة لتدهور الأحوال السياسية والأحوال الاقتصادية ، كان من الطبيعى تدهور أحوال الصحة العامة في العهد العثمانى ، فقد تعرضت مصر لأوبئة مثل وباء الطاعون ، والذى كاد يفتك بالسكان نتيجة انتشار البرك المتخلفة من مياه النيل في فترة الفيضان ، وعدم قيام السكان بردمها ، بالإضافة لطبيعة مناخ مصر الحار ، الرطب .

وجد الطاعون الفرصة مناسبة للنمو وللفتك بالسكان ، كما كانت الخدمة الصحية ، والمتمثلة في المستشفيات والمحاجر الصحية تكاد تكون منعدمة ، ولذلك تناقص عدد الشعب المصرى ، ووصل حتى مجيء الحملة الفرنسية على مصر إلى حوالى مليونين ونصف المليون نسمة .

ما يقال عن الصحة ، ويُقال عن الاقتصاد ، يقال أيضًا عن التعليم ، فقد تدهور التعليم ، وظل قاصرًا على بعض الكتاتيب ، وعلى الجامع الأزهر الشريف والذي ظل محافظًا على اللغة العربية من الضياع ، وظل بمثابة الشمعة التي تضيء ظلمات الليل ، وكان من نتيجة تدهور التعليم انتشار الدجل والشعوذة ، وسيادة الأفكار المتخلفة ، بالإضافة لانتشار عملية استخدام كتابة الأحجية والتائم لتفادي الأمراض .

ولعل القارئ يتساءل : هل الدولة العثمانية ، لم تحاول أبدًا الإصلاح ؟ وهل كانت متخلفة في عصر دارها ؟ والإجابة على السؤال الأول : نعم لم تحاول الإصلاح ، لأنها كانت تنظر إلى الولايات على أنها خزانة نقود فقط ، بالإضافة لعدم تأهلهم حضاريًا وثقافيًا للرقى بأحوال الولايات ، نظرًا لطبيعة نشأتهم الرعوية .

أما الإجابة عن السؤال الثاني فقد اعتمدت الدولة العثمانية على أبناء الولايات في بناء معالم النهضة في استانبول .

فعندما دخل سليم الأول مصر ، أخذ معه كل الصناع المهرة لكى ينواله عاصمته ، وعندما زار مصر وقف مبهورًا أمام العمارة الإسلامية المصرية ، ويقال : إنه عندما شاهد مسجد السلطان حسن قال : هذا حصار عظيم . وعندما شاهد مدرسة السلطان المؤيد قال : هذه عمارة الملوك ، وعندما شاهد مدرسة الغورى ، قال : هذه عمارة تاجر .

* * *